التفكير اللساني عند سيبويه

مسعي حليمة

الملخص:

لقد أقام سيبويه غالب تفسيراته ومعالجاته القواعدية على الاستعمال اللغوي والظاهر أنّ سيبويه لم يكن يتوقف عن تتبع سياقات الخطابات والعوامل المصاحبة للإرسال اللغوي، بل إنّه كان يتخطّى حدود المباني مفترضا مواقفها المصاحبة ، ومستندا إليها في ردّ جمل جائزة تركيبيا، مردودة وفقا لسياق إطلاقها، وكان ذلك ملحظا أساسيا في كثير من الدراسات، فلقد كان سيبويه صاحب نظرة وظيفية متقدمة إلى اللغة حين جعل معطيات العالم الخارجي مَلْحظا في حكمه اللغوي، كما سلك في مدونته نظاما تواصليا، راعى فيه الأبعاد التداولية والوظيفية والاجتماعية للغة، فقد حرص على تمثل النظام واقعا حيّا، بيّن فيه كيفية تأليفه وتلاؤمه وتلازمه في إيصال الرسالة التبليغية لأطراف الخطاب، كما أنّ سيبويه إنحاز إلى واقع الاستعمال اللغوي واحتفى به ، ونظرة سيبويه للظاهرة اللغوية لم تكن تقليدية، بل كان يُصنف ويُقعّد وفق ظروف إنتاج الخطابات وحقيقة الممارسة الاجتماعية لها، ومن هذا المنطلق إعتمدنا على المنهج الوصفي باعتباره وسيلة لقراءة ووصف التراث وقراءته عند سيبويه وكيفية معاجته للمسائل والقضايا اللسانية والهدف المرجو من هذا الموضوع إبراز نقاط الإلتقاء والتشابه من حيث الدراسة والمنهج والإجراءات بين العلماء والنحاة القدامى وبين اللسانيين والعلماء المحدثين وذلك من خلال الموضوع المشترك ألا وهو الظاهرة اللغوية ومظاهرها .متبعين في ذلك خطة معمقة لموضوع بحثنا والذي تمثل في :اللسانيات وأهم الدارس اللسانية الغربية الحديثة-التعريف بسيبويه والكتاب-التفكير اللساني عند سيبويه(الدرس الصوتي بين سيبويه وفردينان دي سوسير)- أهّم مظاهر النحو التوليدي التحويلي عند سيبويه وفي الأخير ننهي بحثنا بخاتمة تتضمن جملة من النتائج المتوصل إليها.

تمهيد:

قام النحاة العرب بوضع قواعد النحو العربي (القواعد التقليدية)ومن بينهم سيبويه ،حيث كانوا يستنبطون قواعدهم من نصوص اللغة،فمن يمعن النظر في كتاب سيبويه يدرك الوضوح في أصالة النحو العربي عند النجاة الأوائل الذين عاشوا في الصدر الأول من الإسلام،فلقد صنع سيبويه للنحو مالم يصنع احد ويعد كتابه معيارا للعربية،وكنزا من كنوزها الزاخرة. وقد عرف القدماء فضله،وأتوا الكتاب حقه من الدرس و البحث والنقد والتأليف،وسوف نروم في هذه الدراسة حول مقابلة بين النحو العربي و اللسانيات الحديثة،خاصة التفكير اللساني عند سيبويه،أي علاقة سيبويه وكتابه بالدرس اللساني الحديث.

١. اللسانيات وأهم المدارس اللسانية الغربية الحديثة:

تعرف اللسانيات بأنها "الدراسة العلمية للسان"١ويسمى أيضا:"الألسنة وعلم اللغة" وهو الدراسة العلمية للغة.٢

وموضوع اللسانيات هو اللسان،ومن هنا يجدر بنا في هذا المقام أن نعرف اللسان،ففي المعاجم والمدونات اللغوية الكبرى،فلقد وردت لفظة لسان بكثرة نذكر منها على سبيل المثال:

يقول (ابن فارس ٣٩٥ه)، في مادة (لسن):"اللام والسين والنون أصل صحيح واحد يدّل على طول لطيف غير بائن في عضو أو في غيره ومن ذلك اللسان، وهو معروف والجمع، (ألسن)"

فموضوع اللسانيات موضوع في غاية الأهمية إذْ تطّرق إلى دراسته الكثير من العلماء والدارسين بذلك شكلوا مدارس لسانية نذكر أهمها ومنها:

أولا: المدارس اللسانية الأوروبية:

١) المدرسة البنيوية (مدرسة جينيف)مع دي سوسير:

من أهم القضايا التي أثادها فردنيان دي سوسير(Fardinand du sossure) في كتابة التفريق بين اللسان و اللغة ، و التفريق بينها و بين الكلام . وبين الوصفي

و المعياري (التزامي و التعاقبي) و كذلك دراسة العلاقة بين الدال و المدلول ٣

٢) : المدرسة الوظيفية مدرسة (براغ fonctionnelle**)مع ياكبسون ومارتيني:**

ومن أهم مبادئ هذه المدرسة:

أولا:وضعت نظرية كاملة في التحليل الفونولوجي.

ثانيا:تحديد الوظيفة الحقيقية للغة ، والتي تتمثل ب(الاتصال).

ثالثا:اللغة ظاهرة طبيعية، ذات واقع مادي يتصل بعوامل خارجة عنه.

رابعا:الدعوة إلى الكشف عن تأثر اللغة بكثير من الظواهر العقلية والنفسية والاجتماعية.

٣) المدرسة النسقية مدرسة (كوبنهاكنglossématique**) مع هلمسلف:**

ومن أهم مبادئ هذه المدرسة نذكر مايلي:

- اللغة ليست مادة، وإنمّا هي صورة أو شكل
- تباين اللغات بعضها البعض من حيث المستوى التعبيري والمحتوى
- يوضع لتحليل نظرية صورية رياضية تصدق على جميع اللغات
- تقوم على النقد الحاد للسانيات التي سبقتها وحادت في نظرها عن مجال اللغة بانتصابها خارج الشبكة اللغوية.
- تحديد الوحدة اللسانية بعلاقتها مع الوحدات الأخرى داخل النسق.٤

٤) مدرسة السياق:وهي مايعرف بمدرسة فيرث:

تقوم نظرية فيرث السياقية على إعادة الاهتمام بالأحوال والمحيط الذي يتضمن الأحداث الكلامية، والقول بأنّ الإدراك اللغوي والمعرفي يحصلان عندما تنتقل الأفكار من رأس المتكلّم إلى السامع ليس سوى خرافة مضلّلة. وأنّ الكلام ليس أقوالا بل أفعال تحتوي الحدث الكلامي والقضايا المادية المحيطة بالنص المنطوق أو المكتوب، وأنّ استخراج الدلالات اللسانية لايكون ناجحا إلّا إذا ارتبطت اللغة بالقضايا الاجتماعية السياسية، الإنسانية للمجتمع.٥

ثانيا: من المدارس اللسانية الأمريكية:

١) مدرسة (سابير):

إنّ أهم المبادئ التي تميّز هذه النظرية مايلي:

- تفريق سابير بين نظام اللغة الفيزيائي (الكلام) ونظامها المثالي.
- يحتوي النظام المثالي للغة في مستواه الصوتي على العناصر ووظائفها وإنّ هذه العناصر هي التي تكوّن اللغات.
- كلّ لغة ذات نظام مثالي، تحلّل الواقع وتفرض منهج التحليل على كل الأشخاص اللذين يتكلمونها قصد تحقيق تواصلهم الاجتماعي تكون قد أسّست فكرهم.
- إنّ اللغة وسيلة لتكوين الفكر.٦

٢)المدرسة التوزيعية (distributionnelle)**أو المدرسة السلوكية مع بلومفيلد:**

ومن أهم مبادئ هذه المدرسة:

- اللغة (مادة)قابلة للملاحظة المباشرة.
- دراسة المعنى قد تعوق الوصول إلى القوانين العامة التي تحكم السلوك اللغوي.

٣)المدرسة التوليدية التحويلية (transformational generative)**:**

لقد نشر تشومسكي(×) كتابه الأوّل عام ١٩٥٧م، وكان كتابا ضئيل الحجم مُقتضِبًا ومع ذلك كان كتابه ثورة في الدراسة العلمية للغة، لقد تحدّث تشومسكي عمّا يسمّيه "النحو العالمي"وهو تعبير عن الثوابت اللغوي العالمية ولذا يُنكر تشومسكي وجود لغات بدائية. والنحو التوليدي هو نظرية لسانية وضعها تشومسكي، ومعه علماء اللسانيات في المعهد التكنولوجي بماساشوسيت(بالولايات المتحدّة) فيما بين ١٩٦٠م و١٩٦٥م. بانتقاد النوذج التوزيعي والنموذج البنيوي ، في مقوماتها الوضعية المباشرة، باعتبار أنّ هذا التصوّر لايصف إلّا الجمل المنجزة بالفعل، ولا يمكنه أن يفسّر عددا كبيرا من المعطيات اللّسانية مثل:الالتباس، والأجزاء غير المتصلة ببعضها البعض، فوضع هذه النظرية لتكون قادرة على تفسير ظاهرة الابداع لدى المتكلّم وقدرته على إنشاء جمل لم يسبق إن وُجدت أو فهمت على ذلك الوجه الجديد.٧

إنّ المتتبع للمسار التاريخي لهذه النظرية يجدها قد مرّت بمراحل عدّة عرفت خلالها العلامة اللسانية تحوّلات جريئة بدءا من الإبداعية وختاما بالمكوّن الدلالي.٨

المرحلة الأولى:مرحلة المباني التركيبية (١٩٥٧-١٩٦٥):

لقد ركزّ فيها تشومسكي إجمالا على

النقط التالية:

- ركزّ على الخاصية الإبداعية بوصفها النهاية المفتوحة في اللغات الإنسانية بمعنى :"أنّ اللغة تقدّم وسائل محدودة لتعبّر عن إمكانات غير محدودة"٩ فالإبداعية في جوهرها"استعداد المتكلّم التلقائي لفهم إنتاج عدد لانهائي من الجمل لم يسبق تلفظها أو سماعها"١٠
- والنقطة الثانية تتمثل فيما يسّميه تشومسكي بالحدس أو المقدرة على الحكم اللغوي عند المتكلّم وذلك للتمييز بين مجموعة من الجمل المترادفة في المعنى، أو الجمل ذات اللبس اللغوي.١١
- النقطة الثالثة التي نبّه عليها تشومسكي في (المباني التركيبية) هي أنّ الاتجاه الذّي سلكه البلومفيديون هو اتجاه مستقيم ومن هنا ينبغي علينا ألّا ننظر إلى النظرية اللغوية على أنّها كتاب يجمع عددا من أساليب الاكتشاف المفيدة.١٢
- النقطة الرابعة تتمثل في صياغة النظم البديلة في الوصف النحوي، إذ أنّه يشبّه القواعد النحوية بالقواعد والقوانين الحسابية إذْ يتحتّم عليها أن تكون دقيقة التحديد١٣.

أمّا المرحلة الثانية فتبدأ من سنة ١٩٦٥م:

ويقترح تشومسكي هنا نظرية أكثر اتساعا للقواعد التحويلية وأهم مبادئ هذه المرحلة نوجزها في النقاط الآتية:١٤

الكفاءة في المفهوم العام :هي المعرفة اللغوية الباطنية للمتكلّم والأداء هو الاستعمال الفعلي للغة في المواقف الحقيقية.

٢)المبدأ الثاني: البنية العميقة والبنية السطحية:

من المصطلحات التي استحدثها تشومسكي في نظريته مصطلح البنية السطحية ومصطلح البنية العميقة، "فالبنية السطحية للجملة عبارة عن نظام مكوّن من مقولات gatégories ومكونات تركيبية تكون برمتها مرتبطة مباشرة بالإشارة الفيزيقية إلى البنية العميقة التي تكون بدورها عبارة عن نظام من المقولات والمكوّنات التركيبية"١٥

- المبدأ الثالث: المكوّن الدلالي:

من أهمّ الأشياء الملاحظة في هذه المرحلة هو إشتراك تشومسكي مكوّنا لم يعطه حقه من الاهتمام سابقا-وإن كان قد أومأ إليه- يتمثل هذا الشيء في المكوّن الدلالي الذّي كان له دور كبير في تغيير نظرة تشومسكي إلى القواعد ، ويرجع الفصل في إشراك هذا المكوّن إلى فودر(fodor) وكاتز(katz) وبوستل(postel) والهدف منه أن يكون مكمّلا مع القاعدة التوليدية في مستوى البنية العميقة١٦.

- المرحلة الثالثة: النظرية النموذجية الموّسعة:

بدأت هذه المرحلة بعد سنة ١٩٧٠م، تميّزت بظهور نظريتين دلاليتين تقاربان المعنى في اللغة الطبيعية، النظرية الدلالية التفسيرية ل:كارتز وفودر، والنظرية الدلالية التوليدية ل:ليكوف وروس وبوستال ثم غروبر، والنظريتان لاتشكلان فقط تعديلا للجانب الدلالي، بل تسعيان أيضا إلى إعادة صياغة لكل نموذج لغوي.

التعريف بسيبويه والكتاب:

١) سيبويه (اسمه وكنيته ولقبه):

هو عمرو بن عثمان بن قَنْبَرْ، وبعضهم يختزل نسبه فيقول:عمرو ابن قنبر، وهو فارسي الأصل، وينتمي بالولاء إلى الحارث بن كعب بن عمرو ابن عُلة بن جَلْد بن مالك بن أدد. وأمّا كنيته فاختلفت فيها:فهو أبو بشر ، وهو أبو الحسين، وهو أبو عثمان، وأثبتت هذه الكنى جميعا هي أبو بشر. وأمّا لقبه فقد سار مسير الشمس وعُرف به منذ قديم الزمان لم يلقب به أحد قبله، وهو"سيبويه" وقد ألقى العلماء الأقدمون ضوءا على هذا اللقب الفارسي، ١٧ فذكروا أنّه مركّب من"سيب"بمعنى التفاح و"ويه"بمعنى الرائحة.

٢) كتاب سيبويه:

لقد عُرف كتاب سيبويه من قديم الدّهر إلى يومنا هذا باسم الكتاب أو كتاب سيبويه، ومن المقطوع به تاريخيا أنّ سيبويه لم يسمّه باسم معيّن على حين كان العلماء في دهره ومن قبل دهره يضعون لكتبهم أسماء:كالجامع والإكمال لعيسى بن عمر، والعين المنسوب إلى الخليل. وقد يكون أعجل عن تسميته بأنّه احْتضِر شابا فلم يتمكن من معاودة النظر فيه واستتمامه، فليست للكتاب مقدمة وليست له خاتمة مع جلالة قدره وإحكام بنائه. ولقد سمّاه الناس قديما"قرآن النحو"١٨.

ومامن شك في أنّ كتاب سيبويه هو الذي أرسى قواعد التأليف في النحو وأقام هذا الصرح الشامخ، ورفع مناره، فاهتدى بهديه جميع النحويين الذين جاءوا من بعده حتى يومنا هذا.شهرة كتاب سيبويه قد بلغت الذّروة في النحو وأقول إنّ من

ينظر في كتاب سيبويه، ويرى استعراضه للأبنية ليجد العجب العُجاب، ممّا يبلغ بكتاب سيبويه الذّروة في اللغة أيضا.

ولقد أجمع العلماء على الثناء عليه، والإشادة به:

١. قال أبو عثمان المازني:"من أراد أن يؤلّف كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي ممّا أقدم عليه"

٢. قال محمد بن يزيد المبرّد:"لم يُعمل كتابٌ في علم من العلوم مثل كتاب سيبويه، وذلك أنّ الكتب المصنّفة في العلوم الأخرى مضطرة إلى غيرها وكتاب سيبويه لا يحتاج من فهمه إلى غيره".١٩

التفكير اللساني عند سيبويه:

إنّه من أغلب الدراسات في علوم اللغة واللسان التي بحث فيها العديد من اللسانيين والعلماء، كعلم الأصوات وعلم اللغة العام وعلم الدلالة، قد تطرّق إليها وغاصوا في نحواها الكثير من النحاة والعلماء العرب منذ القدم، ونذكر في طليعتهم"سيبويه" الذّي يعدّ الرائد الحقيقي في الدراسات النحوية والصوتية العربية، حيث نلاحظ تطابقا في الدراسة والتفكير في موضوع البحث وخاصة في مجال اللغويات والصوتيات بين العلماء والقدامى والمحدثين ونذكر على سبيل المثال:الدرس الصوتي بين منهجية سيبويه واللسانيات الحديثة.

١-الدرس الصوتي بين سيبويه وفرديناند دوسوسير:

سوف نلقي الضوء في هذا العنصر على مجال الدراسات الصوتية أو بالأصّح التراث الصوتي العربي عند سيبويه حيث نجد فيه جانبا من توليد اللسانيات الحديثة التي تعطي عناية كبيرة في دراسة اللغة من جوانب مختلفة، فهذه الدراسة تنقسم إلى مستويات أهمها:

١) مستوى الأصوات: الذّي يحلّل الأصوات الكلامية ويصنفها مهتما في ذلك بكيفية إنتاجها وانتقالها واستقبالها، فإنّ علماء اللغة يطلقون عليه اسم "علم الأصوات العام"(phonetics).

٢) مستوى الصرف (morphology): أو مستوى دراسة الصيغ اللغوية، وبخاصة تلك التغيّرات التي تعتري صيغ الكلمات فتحدث معنى جديدا.

٣) مستوى النحو(syntax): الذّي يختص بتنظيم الكلمات في جمل أو مجموعات كلامية ودراسة تركيب الجملة.

٤) مستوى الدلالة (semantics): الذّي يختص بدراسة معاني الكلمات.

٥) مستوى المعجم (lexiogriphy):ويستمد وجوده من علم دراسة تاريخ الكلمات.

ومن هذا المنطلق نتيّقن بأنّ العلماء قديما قد تنبهوا إلى قيمة الصوتيات الكبيرة في الدرس اللغوي، ولعلّ في طليعة من نفاخر بهم العالم النحوي(سيبويه) (ت١٨٠ه) حيث تحدّث عن الصوتيات وجاء الحديث قصد بيان موقعه من دراسات اللغويين الأجانب المحدثين خاصة، ويعود الفضل في ظهور الدرس الصوتي العربي للعلماء القدامى بغية الحفاظ على القرآن الكريم وتدوينه وتلاوته تلاوة صحيحة وتعليم قراءته، واتسعت بعد ذلك حركة جمع اللغة واستخلاص قواعدها بظهور الكتب الجامعة التي تضم ألفاظ اللغة وقد تعرّض لقواعدها "سيبويه"في كتابه وغيره من النحويين واللغويين، حيث ذكر في كتابه الجزء الرابع في باب الإدغام عددا من الحروف العربية ومخارجها ومهموسها ومجهورها وأصولها وفروعها وما إلى ذلك ممّا يدخل في تكوين النظام الصوتي العربي، وقد تنبّه سيبويه أيضا إلى أهمية الصوت اللغوي وأدرك النظام الصوتي فكان عللى وعي تام بأنّ دراسة الأصوات مقدمة، لابّد منها لدراسة اللغة لذلك فقد تناول بالوصف الصوت المنطوق، حيث أدرك بأنّ الحرف الواحد قد يشتمل على أكثر من صوت واحد يأتي كل صوت منه في بيئة صوتية(صوتيا) مستقلة، كما هي الحال في (النون الخفيفة) على سبيل المثال فهي تنوّع صوتي للصوتية (النون) التي تشتمل على عدد من الأصوات حتى أنّ بعض أصوات النون كالذّي في (ينظر) ينطق بإخراج اللسان كإخراجه في (الظاء)٢٠، وهذا ما يدعوا إليه(دوسوسير)(ferdinand de saussure)"١٨٥٧-١٩١٣م" أندري مارتيني(andré martinet) وكورتيناي في تعريفهم للفونيم الذّي لايحمل معنى في ذاته وإنّما يتأسس تغيير المعنى في المتواليات الصوتية المتشابهة مثل: (قال-نال-جال-خال-مال)على مبادئ علمية قارة وثابتة مثل القيمة الخلافية ومحور الاستبدال ومحور التركيب. وتعرّض أيضا لمخارج الأصوات حيث ذكر سيبويه أنّ المخارج مرتبة من الحلق إلى الشفتين وهي ١٦ مخرجا. حيث حدّد لهذه المخارج خصائص وصفات تميّز كلّ صوت عن غيره منها: المجهور والمهموس، الشديد والرخو، والاطباق والانفتاح والاستعلاء والاستفال والقلقلة والصفير والتكرار

والانحراف، وهذا مانجده عند دوسوسير في وصفه لجهاز الصوت على تجويف الأنف وتجويف الفم والحنجرة بما في ذلك فتحة لسان المزمار الواقعة بين الوترين الصوتيين، حيث أعطى تفصيلا مكثفا لإحداث الأصوات وتوليدها من أجهزتها فقد ذكر العناصر التي تسهم في إخراج الأصوات وهي :اندفاع الهواء من الرئتين إلى الخارج + النطق في الفم+التصويت في الحنجرة+الرنين في الأنف+إحداث الصوت.٢١ والملاحظ لهذا الكلام يجد تطابقا في الدراسات اللسانية الحديثة ودراسات النحويين العرب وفي الدراسات الحديثة عند العالم اللساني السويسري (ف.دوسوسير) والذّي أولى دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها، فاللغة ليست مجرّد آلة مادية صوتية بل إنّها نظام(structure) حيث يركز على وصف جوهر اللغة وشكلها، أي أنّ اللغة نظام من الإشارات(système de signe) التي تشير للمقصود بنية التبليغ والتخاطب والتواصل، فاللغة أصوات يعبّر بها الناس عن أغراضهم قصد الإبانة والإفهام حيث نجد هذا الكلام جلّي وواضح عند سيبويه في استعماله لمصطلح الكلام بمعنى الممارسة العملية للنظام اللغوي، وكثرة الظاهرة في الكلام عند سيبويه تعني كثرتها في ممارسة الناس للغتهم، وأدائهم لها ولعلّ هذا واضح في قوله :"يُقَالُ هذا رجل حَسَنٌ الوجه فهذا الغالب في كلام الناس"أي في ممارسة الناس للغاتهم.

-أهّم مظاهر النحو التوليدي التحويلي عند سيبويه :

يرى الكثير من الباحثين سواء عربا أم غربا، أوجه تشابه بين النحو العربي والنظرية اللسانية التوليدية التي جاء بها "نعوم تشومسكي"(avrom noam chomsky ((١٩٢٨م)، بدءا من أواسط الخمسينيات من القرن العشرين، فالمتطلّع على كتاب سيبويه، وعلى أبوابه وقضاياه اللغوية اللغوية يلاحظ أنّه قد تعامل بمفاهيم المنهج التحويلي من دون ذكر المصطلحات نفسها، ويظهر ذلك جلّيا في العديد من الظواهر اللغوية والنحوية، ومن أمثلة ذلك نذكر:

أولا: دراسة سيبويه لوسائل التحويل: كالحذف، والتقديم والتأخير والاعتراض (الفصل) والاختصار والإيجاز، والاتساع والزيادة....الخ. وقد ذكر سيبويه أنّ العرب"يغيّرون الأكثر في كلامهم"٢٢وهذا التغيير أو التحويل يكون بشتى الوسائل من أهمها:

١)الحذف:

لقد ورد هذا المصطلح في كتاب سيبويه كثير، حيث يقول في كتابه"واعلم أنّ العرب يستخفّون فيحذفون التنوين والنون، ولايتغيّر من المعنى الشيء"٢٣ وهذا فيما يخص حديثه عن الحركة، وفي قوله (لايتغير من المعنى شيء) يتشابه مع رأي التحويلين، أنّ التحويل ومظاهره ومنها الحذف لايمسّ المعنى الأصلي للجمل.

كما تحدّث أيضا عن حذف الحرف، ومن ذلك قوله:"ومن ذلك أيضا:مُتَّلِجٌ ومُتَّهِمٌ ومتَّخِمٌ، تقول في تحقير متَّلِجٌ:مُتَيَّلِجٌ ومُتَّيهَمٌ ومُتَتَلْخِمٌ، تخذف التاء التي دخلت لمفتعل وتدع التي هي بدل من الواو، لأنَّ هذه التاء أبدلت هاهنا، كما أبدلت حيث كانت أول الاسم، وأبدلت هاهنا من الواو كما أبدلت في أَرْقَةٍ و أَدْؤُرٍ الهمزة من الواو وليست بمنزلة واو موقِن ولاياء ميزانٍ، لأنهما إنّما تبعتا ما قبلهماً"٢٤

وكان غاية التخفيف عندهم، لأنّه أخفّ شيء عندهم في كلامهم"٢٥ كما تحدّث أيضا عند حذف الكلم(×) ومن ذلك قوله:"اعلم أنّهم ممّا يحذفون الكلم، وإن كان أصله في الكلام غير ذلك، ويحذفون ويعوّضون، ويستغنون بالشيء عن الشيء الذّي أصله في كلامهم أن يستعمل حتى يصير ساقطا"

والواضح من المقولات السابقة الذكر أنّ الحذف ظاهرة مشتركة حيث يميل المتكلّم إلى الحذف العناصر المكرّرة، ومثال ذلك عند سيبويه حيث يقول:"وأمّا استغناؤهم بالشيء عن الشيء فإنّهم يقولون يدَعُ ولايقولون وَدَعَ، واستغنوا عنها بِتَرَكَ وأشباه ذلك كثير" ونجد هذا في المنهج التحويلي الحديث في تفسيره لظاهرة الحذف التي قدّمها للنحو العربي.

حيث يقول التحويليون إنّ (our father is) مأخوذة من بنية عميقة وهي (our father is stubborrn) وذلك بقاعدة تحويلية تحذف الصفة المكرّرة التي هي(stubborn)٢٦ وأصل الجملة هي richard is as stubborn as our father is.

٢)التقديم والتأخير:

ونستطيع القول (قواعد إعادة الترتيب rearrangement rules):

وهي من الخصائص الكلية المهمة في اللغات الإنسانية، وذلك أنّ لكلّ لغة ترتيبها الخاص، والحق أنّ العرب القدماء قد عنوا

بهذه الظاهرة عناية بالغة وأخذوا يحكمون القوانين التي تنظمها، فبحثوا في قضية "التقديم والتأخير" وتأثيرها على تركيب الجملة من حيث الإعمال أو الإلغاء، ومن حيث التغيير الدلالي، ٢٧ يقول سيبويه عن تأثير الترتيب في شكل الجملة من ناحية وفي معناها من ناحية أخرى"وتقول:ماكان فيها أحد خيرٌ منك، وماكان أحدٌ مثلك فيها وليس أحدٌ خيرٌ منك، إذا جعلت (فيها) مستقرا ولم تجعله على قولك فيها زيد قائم أجريت الصفة على الاسم"٢٨ ومن ذلك قوله عزّ وجلّ(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا) وأهل الجفاء من العرب يقولون(وَلَمْ يَكُنْ كُفُواً لَهُ أحدٌ)، كأنّهم أخروها حيث كانت غير مستقرة.

والملاحظ أنّ كلّ عناصر الجملة معرضة لتغيير مكانها وإن كان ذلك أكثر مايكون في مايسّميه العرب"فضلة"كالمفاعيل والحال والظروف وغير ذلك، ونجد ذلك عند المحدثين، فننظر مثلا في الجملة الإنجليزية الآتية:٢٩

A detective hunted down the killer

هذا هو ترتيب الجملة في بنيتها العميقة، ويمكن أن تتحوّل بالترتيب نفسه إلى بنية السطح، ويمكن أن يتغيّر الترتيب بنقل كلمة(down) لتصير:

A detective hunted the killer down

٣)الاعتراض(الفصل):

يعدّ الفصل من وسائل التحويل عند تشومسكي، وقد تعرّض سيبويه لدراسته، محاولا تفسير أسباب الفصل وضوابطه، وقد ذكر سيبويه ذلك في قوله:" يعني هذا ضاربُ زيدٍ وعمرَ وعمرًا بالنصب وقد فعل لأنّه اسم وإن كان قد جرى مجرى الفعل بعينه، والنصب في الفصل أقوى، إذا قلت :هذا ضاربُ زيدٍ فيها وعمرًا كلّما طال الكلام كان أقوى، وذلك أنّك لا تفصل بين الجار وبين مايعملُ فيه، فكذلك صار هذا أقوى"٣٠

ويقول أيضا في موضع آخر:"واعلم أنّ ماكان فصلا لايغيّر مابعده عن حاله التي كان عليها قبل أن يّذكر، وذلك قولك:حسبت زيدا هو خيرا منك"٣١

وعمّا يمكننا أن نعتبره من جماليات "الفصل"يقول:"كما أنّ كلّ مكان حسُن لك أن تفصل فيه بين العامل، والمعمول فيه بما يحسن عليه السكوت حسُن لك أن تفصل فيه بينهما بما يقبحُ عليه السكوت"٣٢

٤) قواعد الزيادة والإقحام(insertion rules):

لقد عرض نحاة العربية لظاهرة"الزيادة" في الجملة وأشاروا إلى أنّ مايزاد في الكلام لايضيف معنى، وإنّما هو زيادة قد تضيف فائدة تركيبية كالتوكيد أو قوة الربط أو الفرق أو غير ذلك، وهكذا كان حديثهم عن الواو المقحمة، وعن حروف الجرّ الزائدة، وعن ضمير الفصل وعن زيادة (كان) أو (إنّ)أو (أنّ) أو (ما) وقد تكفي هنا إشارات قليلة من نصوص سيبويه لتبرز إدراكهم هذا القانون، حيث يقول في ضمير الفصل:"واعلم أنّ ماكان فصلا لايغيّر مابعده هو خيرا منك، وكان عبد الله هو الظريف، قال الله عزّ وجلّ:"ويرى الذّين أوتُوا العلْمَ الذّي أُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ ربِّكَ هو الحقُّ"فصارت(هو) هاهنا وأخواتها بمنزلة "ما"إذا أنّها لاتغيّر ما بعدها عن حاله قبل أن تذكر"٣٣

يعني هذا الزائد لا يدل على معنى،كأنه يشير الى البنية العميقة في الكلام،وهذا ما نجده عند التحويليين اذ يشيرون اللى ان هناك تركيبات نظمية تدخل فيها كلمات لا تدل على معنى في العمق،وانما تفيد وظيفة تركيبية،وقد تعد لونا من الوان الزخارف (trapping) ٣٤،ويمثلون لذلك بكلمات من نحو:(there) . (it) في:

١ – there is a hippopotamus in that cornfield.

٢ – there are many people out of work.

فكلمة (there) لا تقدم دلالة في العمق هنا،وانما هي فاعل (سطحي)للفعل الموجود في الكلمة،اي انها نوع من الزيادة.

ومن ثم فإن التركيب في الجملتين هو:

١ – Ahippopotamus is in that cornfield

٢ – many people are out of work.٣٥

٥-الاختصار و الايجاز و الاتساع:

هذه المصطلحات درسها منظرا والمدرسة التحويلية ،وقد سبقهم سيبويه بدراستها ،ومن ذلك قوله تعالى:واسأل القَريَة التّي كنّا فيه والبعيرُ التي أقبلنَا فيها"٣٦ وإنّما يريد بها :أهل القرية فاختصر، ومنه قوله:"ومثله في السعة:أنت أكرمُ عليّ من أن أضربك، وأنت أنكدُ من أن تتركهُ، إنّما تريد ، أنت أكرمُ عليّ من صاحب الضّرب، وأنت أنكدُ من صاحب تركه، لأنّ قولك:أنّ أضربك وأن تتركه، هو الضّرب والتّرك، لأنّ أن اسم ، وتتركه"وأضربك"من صلته"٣٧ومن ذلك قوله :"ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى"٣٨ويفهم

من كلامه:"أن يكون المخاطب فاهما للمعنى، ولايفهم المخاطَب ذلك إلّا إذا كان هذا التّجوّز أو كسر الاختبار من العرف اللغوي، أي:من سليقة المتكلّم والمستمع معا، وهذا هو الجانب الابداعي في اللغة"٣٩

٦) الإضمار والاستتار:

يقول سيبويه في هذا الباب:"أضمَرَ لعلم المخاطَب بما يعنى"٤٠ وقوله:"لأنّه أضمَر في آخر الكلام"٤١ وقوله:"فإمّا أن يكون أضمرَ الاسم وجعل هذا خبره كأنّه قال:أمري طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أو يكون أضمر الخبر فقال:طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أمثل"٤٢ ومثل ذلك:"تاللّه رجُلا، كأنّه أضمر:تاللّه ما رأيت كاليوم رجلا، وما رأيت مثله رجلاً"٤٣

وهذا مايظهر في النحو التوليدي التحويلي عند تشومسكي في قضية البنية السطحية المنطوقة للضمير والذي يكمن تحتها البنية العميقة.

٧)قضية الإدغام والإمالة:

لقد تحدّث سيبويه عن الإدغام كثيرا في كتابه وذلك في قوله:"هذا باب الإدغام"٤٤وقوله أيضا"هذا باب الإدغام في الحرفين اللذّين تضع لسانك لهما موضعا واحدا لايزول عنه وقد بيّنا أمرهما إذا كانا من كلمة لايفترقان، وإنّما نُبيّنهما في الانفصال، فأحسن مايكون الإدغام في الحرفين المتحركين اللذّين هما سواء إذا كانا منفصلين، أن تتوالى خمسة أحرف متحركة بهما فصاعدا، ألا ترى أنّ بنات الخمسة وما كانت عدّته خمسة لا تتوالى حروفها متحركة، استثقالا للمتحركات مع هذه العدّة، ولابّد من ساكن، وقد تتوالى الأربعة متحركة في مثل عُلبِط ، ولايكون ذلك في غير المحذوف."٤٥

وفي حديثه عن الإمالة:"هذا باب مايُمال من الحروف التي ليس بعدها ألف إلا إذا كانت الراءُ بعدها مكسورة"٤٦وقوله:"لا يمنع الألف من الإمالة، وليس بمنزلة مايكون بعد الألف لأنّهم يضعون ألسنتهم في موضع المستعلية، ثمّ يُصّوبون ألسنتهم، فالانحدار أخفُّ عليهم من الإصعاد"٤٧

وهذا مانجد في دراسات تشومسكي في النحو التوليدي التحويلي، حيث يساعد هذه الوسائل على تحويل الكلام من بنيته العميقة (الأصل) إلى البنية السطحية(الفرع).

ثانيا:قضية البنية العميقة والبنية السطحية:

تعدّ هذه الفضية من أهم ماجاء بها تشومسكي في نظريته للتفريق بين البنية السطحية والبنية العميقة، كما اهتم بهذا أيضا سيبويه في كتابه حيث صرّح بذلك في قوله:"اعلم أنّ كل ماكان فيه قلب لايرّد الأصل، وذلك لأنّه اسم بني على ذلك كما بني على ماذكرنا على التاء، وكما بني قائل على أن يبدل من الواو الهمزة وليس شيئا تبع ماقبله كواو (موقن) وياء(قيل)"٤٨ ويطلق عليها بقضية الأصل والفرع وتحدثوا عن من خلال ظاهرة "القلب المكاني"وهو مصطلح أُطلق عليه في الدرس الحديث ب (METATHESIS)ويرون أنّه ظاهرة تفيد في معرفة"الأصل"٤٩ونذكر في هذا المجال ماهتم به سيبويه في معرفته بالبنية العميقة، اهتمامه بالأصل والفرع والتقدير والتأويل والظواهر اللغوية كالحذف والتقديم والتأخير والزيادة والإضمار...الخ.

ونجد أنّ هذه القضية استخدمها تشومسكي في نظريته فكلاهما يشكلان مفتاحا من مفاتيح اللسانيات التوليدية:"فالبنية السطحية للجملة عبارة عن نظام مكوّن من مقولات CATٍGORIES ومكوّنات تركيبية تكون برمتها مرتبطة مباشرة بالإشارة الفيزيقية إلى البنية العميقة التي تكون بدورها عبارة عن نظام من المقولات والمكوّنات التركيبية"وتتميّز البنية العميقة بكونها:

١. بنية مولّدة في قاعدة التركيب بواسطة قواعد إعادة الكتابة والقواعد المعجمية.
٢. البنية التي تمثل التفسير الدلالي للجملة
٣. إنّها البنية التي يمكن لها أن تحوّل بواسطة القواعد التحويلية إلى بنية سطحية.

أمّا البنية السطحية فتمثل الجملة كما هي مستعملة في عملية التواصل لأي أنّها مجموعة من العلامات اللسانية الملفوظة أو المكتوبة .٥٠

المبدأ الثاني:القدرة والكفاءة اللغوية:

يعدّ هذا المبدأ من الاهتمامات التي درّسها سيبويه وأولاها عناية خاصة، ومنه قوله:"وليس شيء يضطرون إليه إلّا وهم يحاولون به وجهاً"٥١

وقوله أيضا:"ويحذفون ويعوّضون ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يستعمل حتى يصير ساقطا"٥٢

ومنه قوله:"واعلم أنّه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممّن يُميل، ولكنّه قد يخالف كلّ واحد من الفريقين صاحبه فينصُب بعضٌ ما يُميل صاحبه، ويميل بعضٌ ممّا ينصب صاحبه، وكذلك من كان النّصب من لغته لا يوافق غيره ممّن ينصب، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأولين في الكسر، فإذا رأيت عربيًّا كذلك فلا ترينَّه خلّطًا في لغته، ولكّن هذا من أمرهم"٥٣كما نجد وردًا لهذين المفهومين بمصطلحي الكفاءة(المهارة) والأداء عبر تشومسكي PERFORMANCE ،COMPéTENCE:

فالكفاءة في المفهوم العام هي المعرفة الباطنية للمتكلّم، والأداء هو الاستعمال الفعلي للغة في المواقف الحقيقية، ونلاحظ هنا اقتراب مفهوم الكفاءة عند تشومسكي من مفهوم الملكة اللسانية عند ابن خلدون، من حيث أنّه نظام عقلي.

وفي ظل ماسلف يمكن التسليم بأنّ العلامة اللسانية واستقامة المعنى تفسّران في كنف هذين المبدأين، بمعنى أنّ جلّ الناس يمتلكون مقدرة لغوية، تمكنّهم من استعمال اللغة استعمالا جيّدا، ولكنّهم عند تطبيق هذه المقدرة خلال الكلام أو التلقي قد يحتاجون إلى وقت للتفكير.٥٤

المبدأ الثالث: العامل بين سيبويه وتشومسكي:

لم يكثر حديث عن قضية من قضايا النحو العربي كما كثر عن قضية العامل، حيث يقول أبو الفتح، أنّ العامل كان ولايزال حجر الزاوية في النحو العربي، فلقد أخذ تشومسكي نظرية العامل عن سيبويه ونشرها، وبدأ اللغويون العرب المعاصرون ينشرون العاملية(عاملية تشومسكي) وهي نفسها عاملية سيبويه، حيث أشرنا قبل قليل بأنّ العامل قضية مهمة في النحو العربي وهو من أعمدة الدرس النحوي العربي، حيث قال عنه سيبويه في كتابه:"وتأخير الخبر على الابتداء أقوى لأنّه عامل فيه"٥٥ والذي يعنينا هنا هو أن نلفت إلى أنّ التحويليين يقرّرون أنّ النحو ينبغي أن يربط "البنية العميقة"ب"بنية السطح" والبنية العميقة مثل العقلية أو الناحية الإدراكية في اللغة، ودراسة هذه البنية تقضي فهم العلاقات لا باعتبارها وظائف على المستوى التركيبي، ولكن باعتبارها علاقات للتأثر والتأثير.

والحق أنّ قضية العامل –في أساسها– صحيحة في التحليل اللغوي وقد عادت الآن في المنهج التحويلي على صورة لا تبتعد كثيرا عن الصورة التي جاءت في النحو العربي.٥٦

خاتمة:

نستخلص في هذه الخاتمة أهم ماجاء من نتائج في هذا البحث:

- اتفاق المبادئ العلمية بين اللسانيات الحديثة واللسانيات القديمة باعتبار أنّ الأولى قامت على أنقاض الثانية ونجد أغلبها عند سيبويه ودوسوسير في الدرس الصوتي، وكذلك في وظيفة اللغة والتي هي التبليغ والتواصل.
- التوافق الحاصل بين النحو التوليدي عند تشومسكي والنحو العربي على رأسه سيبويه في الكثير من القضايا كقضية البنية السطحية والبنية العميقة، بالإضافة إلى قضية العامل والكفاءة والقدرة، وكذلك قضية الحذف والزيادة والتقديم والتأخير وغير ذلك. وهذا يدّل على التأثير الذي تركه سيبويه في غيره من العلماء العرب والمحدثين الغرب حيث انتهجوا منهجه واتبعوا سبله.
- إنّ أهم مافي النحو العربي أنّه نحو شامل، يدرس الصوت والنظم والدلالة، وهو بذلك يصل اللغة بالفكر، ويعالج الشكل والمعنى وهذه الخصائص هي التي يهدف إليها التطّور الحديث في دراسة اللغة.

الهوامش:

(١)مصطفى حركات:اللسانيات العامة وقضايا العربية، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، (د، ب)، ط١، ١٩٩٨م، ص١٣.

(٢)محمد محمد يونس علي:مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، (د.ب)، ط١، ٢٠٠٤م، ص٩.

(٣)إبراهيم خليل:في اللسانيات ونحو النص، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان الأردن، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٧.

(٤)شفيقة العلوي:محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٤م، ص ص ٢٢/٢١.

(٥)المرجع نفسه، ص ص ٢١/٢٠.

(٦) المرجع نفسه، ص٢٦.

(٧) محمد الصغير بناني:المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، دار الحكمة، الجزائر، (د.ط)، ٢٠٠١م، ص٧٦.

(٨) ينظر:نعوم تشومسكي:اللغة والمسؤولية، تر:حسام البهنساوي، زهراء الشرق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٥م، ص٧٠.

(٩) ينظر:المرجع نفسه، ص١٦

(١٠) ينظر:المرجع نفسه، ص٦١.

(١١) ينظر:المرجع نفسه، ص٦٦.

(١٢) ينظر:مازن الواعر:تشومسكي، مجلة الوقف الأدبي، ص٦٣.

(١٣) ينظر:المرجع نفسه، ص٦٣.

(١٤) رونالد إيلوار:مدخل إلى اللسانيات، تر:بدر الدين القاسم، وزارة التعليم العالي، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٨٠م، ص١٣٨.

(١٥)نعوم تشومسكي:المرجع السابق ص٤٩.

(١٦) مختار درقاوي:نظرية تشومسكي التحويلية التوليدية، الأسس والمفاهيم،

transformational generative theory of chomsky foundations and concepts،

الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية بقسم الآداب والفلسفة، العدد١٢، جوان٢٠١٤م، ص١١.

(١٧) أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر:كتاب سيبويه، تح:عبد السلام محمد هارون، ج١، مكتبة الخانجي بالقاهرة، القاهرة، دط، ص٣.

(١٨) المصدر نفسه ص٢٤.

(١٩) محمد عبد الخالق عضيمة:فهارس كتاب سيبويه ودراسة له، ط١، ١٣٩٥ه، ١٩٧٥م، ص ص٨/٧.

(×) ولد نعوم تشومسكي مؤسس(النظرية التوليدية التحويلية) في مدينة فيلادلفيا، في الو، م، أ، ١٩٢٨م، حاز على الدكتوراه في جامعة بنسلفانيا.

(٢٠) مهني حاجي زاده:دراسة آراء سيبويه الصوتية في ضوء البحث اللغوي الحديث، التراث الأدبي، السنة الثانية، ع٥، ١٣٨٨/١١/١٨ه، ص٢٣.

(٢١) علم اللسانيات، اللغة العربية، تكوين المعلمين، السنة١ الإرسال٢، ص١٥.

(٢٢) الكتاب، ج٢، ص٢٠٨.

(٢٣) الكتاب، ج١، ص١٠٥.

(٢٤) الكتاب، ج٤، ص٣٠٦.

(٢٥) الكتاب، ج٢، ص٢٥٥.

(٢٦) langacker ronald،fundamentals of linguistics analysis harcourt brace jovanovich ،new york،١٩٧٢،p١٠٩.

(×) يستعمل سيبويه مصطلح الكلام ويريد به الكلمة، أو الكلم أو الكلمات المفردة.

(٢٧) عبده الراجحي:النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ط)، ١٩٧٩م، ص١٤٦.

(٢٨) الكتاب، ج١، ص٢٧.

(٢٩)langacker،language and its structure،p١٣٣.

(٣٠) الكتاب، ج١، ص١٧٤.

(٣١) الكتاب، ج٢، ص٣٩٠.

(٣٢) الكتاب، ج٣، ص٢٨١.

(٣٣) الكتاب، ج١، ص٢٩٤.

(٣٤) عبده الراجحي:المرجع السابق، ص ص١٥٢/١٥٣.

(٣٥) langacker،language and its structure،p١٣٢.

(٣٦) سورة يوسف، آية:٨٢.

(٣٧) الكتاب، ج١، ص٢١٢.

(٣٨) الكتاب، ج١، ص٢١٦.

(٣٩) محمد حماسة عبد اللطيف:النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي، الدلالي، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٠ه، ٢٠٠م، ص٨٦.

(٤٠) الكتاب، ج١، ص٤٧.

(٤١) الكتاب، ج١، ص٤٨.

(٤٢) الكتاب، ج١، ص١٤١.

(٤٣) الكتاب، ج٢، ص١٧٤.

(٤٤) الكتاب، ج٦، ص٤٣١.

(٤٥) الكتاب، ج٤، ص٤٣٧.

(٤٦) الكتاب، ج٤، ص١٢٤.

(٤٧) الكتاب، ج٤، ص١٣٠.

(٤٨) عبده الراجحي:المرجع السابق، ص١٤٥.

(٤٩) المرجع نفسه:ص١٤٦.

(٥٠) نعوم تشومسكي:اللغة والعقل، تر:ابراهيم مشروح ومصطفى خلال، دار تينمل، مراكش، ط١، ص٤٢.

(٥١) الكتاب، ج١، ص٣٢.

(٥٢) الكتاب، ج١، ص٢٥.

(٥٣) الكتاب، ج٤، ص١٢٥.

(٥٤) مختار درقاوي:نظرية تشومسكي التحويلية التوليدية الأسس والمفاهيم، ص٩.

(٥٥) الكتاب، ج٢، ص١٢٤.

(٥٦) عبده الراجحي:المرجع السابق، ص ص١٤٧/١٤٨.